

منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر المعاصر (عهد العسكريين أنموذجا)

عمر قفاز، بودربالة نور الدين

جامعة مصطفى اسطنبولي - معسكر

omargueffaz@univ-mascara.dz

جامعة مصطفى اسطنبولي - معسكر

bouderbalanouredine@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2025/06/22؛ تاريخ القبول: 2025/08/22

Abstract: The topic of the history of the revolution constituted a major issue that was widely discussed, especially in terms of methodology. These sources are known for a variety of topics, and one of many French writings must be relied upon, where the pioneers of this school are keen to diversify their research sources around Algeria (the beginning of the military, journalists, clergy, philosophers, etc.)

The French campaign for Algeria formed a fertile ground for these to bring their skills.

Keywords: Curriculum – military - specialists – French – writing.

الملخص:

شكل موضوع التاريخ للثورة التحريرية مسألة رئيسة كثر الجدل حولها، خاصة من حيث المنهج المتبع لإتمام هذه العملية، خاصة في ظل تنوع المصادر التاريخية واختلاف مضمونها، الذي تعرض للمؤثرات الزمنية، ومن بين المصادر

التي كان لابد من الاعتماد عليه الكتابات الفرنسية، التي شكلت مخزوناً عظيماً كان لابد من الاطلاع عليه، والإلمام بمضمونه، وقد حرص رواد المدرسة التاريخية الفرنسية على تنويع مصادر بحثهم حول الجزائر، بداية من الكتابات العسكرية كالتقارير مرورا بكتب الرحالة، والاختصاصيين من العلماء والفلاسفة والصحافيين ورجال الدين، هؤلاء الذين شكلت الحملة الفرنسية على الجزائر أرضاً خصبة لاستعراض مهاراتهم، إما بدافع العلم أو المغامرة، أو دعماً للنظرة الاستعمارية.

الكلمات المفتاحية: المنهج- العسكريين- الاختصاصيين- الفرنسي- الكتابة

المقدمة:

تشهد الدراسات التاريخية في الجزائر تطوراً ملحوظاً، بزخم كبير من المواضيع وحتى دقائق الأمور على مر العصور، ويشهد على ذلك ما نجده من البحوث التي نشرت منذ الاستقلال.

غير أن الملفت للانتباه أن هناك دراسات نشرت خلال الفترة الاستعمارية، ففي الوقت الذي كانت فيه الجزائر منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في حالة مقاومة عسكرية، كانت تجتاحه عملية ثورة أخرى فكرية الجانب، تاريخية الروح، ووطنية الأبعاد، جزائرية الأعماق، كل ذلك تجسد في البحث عن المصادر التاريخية ودراساتها ونشرها، باعتبارها أداة للكشف عما تحظى به الجزائر من تاريخ طويل وإسهام وتراث في تاريخ البشرية بنكهة وسواعد جزائرية محض وحافل بالأحداث، هذا ما أدى إلى بروز نخبة مثقفة جزائرية

تحاول مقاومة الإستيلاء الثقافي الفرنسي الذي احتل مثقفوه مكانة هامة داخل الوسط الثقافي، غير أن ما يلزم التنبيه إليه هو ظهور دراسات بأقلام جزائرية ولكن وفق وجهة نظر وخطة عمل وتصور ساسة فرنسي، أرادوا تتويج السيطرة العسكرية بالفكرية، بأقلامها وأقلام البلد في إطار ما يسمى بالمدرسة التاريخية الفرنسية، والتي كتبت وأرخت لتواجدها وسخرت التاريخ وفق ما يخدم مشاريعها، والملاحظ أن البحوث التي تتناول مراجعة الكتابة التاريخية في حد ذاتها شحيحة جدا، وإذا كانت الكتابة لحظة وعي فإن مراجعتها أو التراجع عنها يعتبر تنظيرا لأسس الكتابة وبناء لمشروع طموح، هو المدرسة التاريخية الجزائرية .

إشكالية الكتابات التاريخية

لقد أثارت مسألة كتابة تاريخ الجزائر جدلا كبيرا حول طبيعة المنهجية التي يجب أن تتبع، حيث يرى بعض الباحثين أن تاريخ الجزائر يجب أن يكتب حسب أسس علمية لا بد أن تجمع الشروط الموضوعية لكتابة التاريخ التي تفرضها الحقائق التاريخية، وهذا تفاديا للنزعة الذاتية في صياغة الأحداث، في حين يرى البعض الآخر أمثال أبو القاسم سعد الله أن هناك ثلاث أنواع من الكتابات التاريخية:

1-الكتابات الرسمية - الكتابات الأكاديمية(أنيسة بركات، 1995: 54)

3-الكتابات الشعبية (أبو القاسم سعد الله، 1996: 8)

بينما ذهب آخرون كأنيصة بركات إلى القول بأن هذه المنهجية العلمية تتطلب الكثير من الوقت لذلك يستحسن البدء بعملية جمع واستقراء الأخبار

والشهادات، لأن هذه الشهادات التاريخية الشفوية يمكن أن تكون مصدرا هاما، لكن لا بد من إخضاعها إلى أساليب النقد والتمحيص لإثبات صحتها (أنيسة بركات، 1995: 54)، وقد ظهر الجدل حول منهج الكتابات التاريخية منذ ظهور فن الكتابة، ومن ابرز الذين دعوا إلى نقد المصادر والتأكد من مادتها العلامة ابن خلدون الذي ذكر في المقدمة الأسس التي يقوم عليها المنهج التاريخي في معالجة أحداث الماضي، في قوله أن فن التاريخ يحتاج إلى معارف متعددة ودقة متناهية تبعد الباحث عن الوقوع في الأخطاء، لأنه إذا اعتمد على مجرد النقد وعدم القياس على الأحوال الاجتماعية يمكن الوقوع في الذاتية بنسبة كبيرة (ابن خلدون، 1213: 1858)، ولعل ابن خلدون في طرحة هذا يؤكد على إن التاريخ انتقل من طبيعته القديمة على انه مجرد فن تحول إلى علم بتوفر المنهج والمادة المدروسة التي أصبح إلزاما ربطها بمجموعة أخرى من العلوم والمعارف كالجغرافيا وعلم الاجتماع، والأدب وبقية العلوم الإنسانية وحتى تلك التي تتعلق بالاقتصاد والسياسة، وقد تدعم هذا الطرح الذي وضعه ابن خلدون بطرح آخر للمؤرخ الفرنسي لويسيان فابفير Lucien Febvre القاضي بإخضاع التاريخ إلى بقية العلوم الأخرى في كتابه: La pensée vivante d'un historien (Lucien.Febvre, 1971, 17).

حيث أكد فيه على أهمية الحوليات أو ما يعرف بالوثائق التي كتبت في نفس الفترة المدروسة.

وبالحديث عن الفترة المدروسة، وبعد الخوض في إشكالية الكتابات التاريخية بمفهومها العام كان لا بد من العودة إلى قضيتنا الأساسية وهي مسألة كتابة تاريخ الجزائر المعاصر، وقد لا نكون في حاجة إلى التذكير بمحاولات التفرقة التي عمد إليها الاستعمار داخل لصفوف المجتمع الجزائري حتى يضمن تكريس

سيطرت على الوضع، وعلى الرغم من وضوح مقصد المؤرخين الاستعماريين الرامي إلى إيجاد تفرقة عرقية بين السكان (عبد المجيد عمراني، 1973: 135) على أساس تقسيمهم إلى بربر وعرب، فإن بقايا هذه النظرة ما تزال موجودة عند عدد من الجزائريين، لذلك وجب التنقيب عن الحقيقة حول هذه النقطة بالذات قطعاً لأثار وتأثيرات النظرة الاستعمارية، على أن التشويه الذي يقع في الكتابات التاريخية الغربية وخاصة الفرنسية منها عندما يتعلق الأمر بالتأريخ للجزائر لم يكن دائماً متعمداً، فمركب التفوق الذي كان يوجد بصفة أو بأخرى في المؤرخ الفرنسي في العهد الاستعماري من شأنه أن يدفع إلى الغفلة أحياناً عن حقائق بديهية، فهو مثلاً يميل إلى تقديم تفسيرات عرقية وجغرافية لظواهر حضارية لا علاقة لها بالعرق أو بالوضع الجغرافي، فالمؤرخون الغربيون ينطلقون في التاريخ لأوروبا من منطلق حضاري من جهة وإقليمي من جهة أخرى، أما عن شمال إفريقيا فهم لا يدخلونه في مجموعة حضارية رغم وجود كل المقومات التي تسمح بذلك ويعتبرونه مستقلاً عن الوجهة الحضارية (عبد المجيد عمراني، 1973: 135).

إن خوض الكثير من المؤرخين الفرنسيين لتجربة التأريخ للجزائر كان مدفوعاً بمجموعة من العوامل هي كالتالي:

أولاً: الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الأوربية التي تحمل معها كل أدوات الغزو الفكري، فقد وصلت إلى الجزائر بوسائل مختلفة كالمطبوعة والصحيفة وعلى أيدي المستشرقين الذين يدعون معرفة الإسلام وتاريخه. (أبو القاسم سعد الله، 1998: 379)

إضافة إلى التراجمة الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية الأوروبية أو الذين جاؤوا من المشرق العربي بعد تأثرهم بالحضارة الغربية عقب حملة نابليون بونابرت.

ثانيا: دافع السيطرة والاحتلال، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بجمع الآثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتقييمها واستخلاص النتائج منها، ومن أجل ذلك استعان الفرنسيون أيضا بكتابات الجزائريين ككتابات العنتري وابن المبارك عن قسنطينة ومحمد ابن علي التلمساني عن علماء وهران وتلمسان وما ترجمه ونشره ابن أبي شنب والحفناوي وغيرهما بطلب من الحاكم العام جونار وجملة من الباحثين الفرنسيين (عبد الجاسم سعدي، 2004: 69-70)

ثالثا: دافع الفضول العلمي، فقد احتلت الجزائر في وقت كان فيه العقل الأوروبي جامحا يتطفل على ميادين المعرفة ويجوب الحياة مكتشفا أسرارها عكس العقل الشرقي الذي كان ما يزال في مرحلة الركود، ومع سيادة العقل الأوروبي ظهرت فكرة التمايز والتفاضل بين الشعوب وضرورة تمدين هذه الأخيرة بواسطة الأولى على أنها رسالة حضارية .

رابعا: الدافع الديني، لقد تعرضت الجزائر للاحتلال بعد صراع شديد بينها وبين أوروبا المسيحية دام ثلاثة قرون تحت المصطلح الأوروبي (القرصنة)، وهو في الواقع كان يشكل الفصل الثاني من الحروب الصليبية، فظهر الاهتمام بالدراسات الإسلامية والطرق الصوفية ورجال الدين ذوي النفوذ الروحي تماشيا مع هذا الاتجاه، كما شاركت الكنيسة بواسطة رجال التبشير ووسائلها المادية

والمعنوية في تبني هذا الاتجاه، فعمدت الحكومة الفرنسية إلى إنشاء اللجان العلمية كاللجنة الإفريقية التي زارت الجزائر سنة 1833، وفي سنة 1837 أنشأت وزارة الحربية لجنة باسم اكتشاف الجزائر العلمي التي كانت مهمتها جمع الدراسات عن المعالم الأثرية والعلوم الطبيعية والفنون وغيرها (أبو القاسم سعد الله، 1973: 10-15).

كما تم تأسيس جمعية قسنطينة للآثار سنة 1852 إضافة إلى الجمعية التاريخية الجزائرية التي ظهرت بوجي من الحاكم العام Randon في مدينة الجزائر سنة 1856 التي كان من أهم أنجازاتها المجلة الإفريقية التي أصبحت بعد مائة عام أغنى مصدر في تاريخ الجزائر، وإلى جانب هذه الدوريات والجمعيات تم تشييد مكتبة ومتحف الجزائر سنة 1835 الذي بدأ في العمل فعليا سنة 1838 (أبو القاسم سعد الله، 1973: 9).

إن من يطلع على ما كتبه الفرنسيون عن الجزائر منذ سنة 1830 يجد أن أغلب هذا الإنتاج الفكري زرع في الوعي الفرنسي الصورة المسبقة الموجودة في ذهنه عن الشرق والبلاد العربية، ولذلك دوافع عديدة منها صعوبة تخلصه من معتقدات راسخة منذ الحروب الصليبية، ومنها الشعور بالاستعلاء والتفوق وارتياحه للصورة الداكنة التي يحملها عن الشرق، وعلى هذا الأساس نجد أن الدراسات المقارنة في ميدان الصورة أصبحت ضرورة وألوية ملحة بالنسبة للباحث، حيث يقتضي منه ذلك دراسة ما كتبه الأوروبيون عن الجزائر وخصوصا الفرنسيون بنصرة موضوعية وعين ناقدة تنشد الحقيقة العلمية والتاريخية لتصحيح الأحكام المسبقة التي تراكمت عبر العصور.

الكتابات التاريخية في عهد العسكريين:

لقد أدرك الاستعمار الفرنسي منذ دخوله إلى الجزائر سنة 1830 أن هذا الشعب لا يمكن إخضاعه بسهولة، لذلك شرع في شن حرب نفسية بتجنيد جميع خبراته في شتى الميادين للبحث عن الأساليب الفعالة للتحكم في هذا الشعب والسيطرة عليه، فعمد إلى دراسة تاريخ هذه الأمة لما له من أهمية في بناء الهوية الوطنية، حيث كانوا على معرفة تامة بالتأثيرات المستقبلية لهذه العملية على المجتمع الجزائري، فأطلقوا العنان لأقلامهم تتفنن في الكتابة عن تاريخ الجزائر القديم والحديث والمعاصر معتمدين في ذلك على جملة من الكتابات السابقة عربية كانت أم أوروبية خاصة تلك المتعلقة بالفترة الاستعمارية من تقارير عسكرية ورحلات ومذكرات الجنرالات والقادة العسكريين.

التقارير العسكرية:

ظهر الاعتماد على هذا النوع من الكتابات منذ السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر، التي كتبت من طرف الضباط المثقفين (صالح بن قرنة واخرون، 2007:302) والمبشرين والصحافيين خاصة فرقة المترجمين العسكريين التي كانت على علاقة إدارية مباشرة مع السكان فسجلوا بعض انطباعاتهم وملاحظاتهم وقاموا بتحديد تقارير رسمية كثيرة مدونين بحماس شديد كلما وقع تحت أيديهم من مصادر مكتوبة وروايات شفوية واثار قديمة حصلوا عليها بطرق ووسائل مختلفة، إما بالإغراء أو القوة وقد ساعدتهم وزارة الحربية الفرنسية على هذه الأعمال (صالح بن قرنة واخرون، 2007:302)، وساهم هؤلاء في إدارة الشؤون الإدارية والعسكرية

للجزائر وتقديم النصائح والإرشادات لهيأة الأركان الحربية الفرنسية، لهذا حضيت هذه الفرق بالكثير من الاهتمام والتنظيم وأطلقت عليها العديد من التسميات، فسميت بفرقة المترجمين العسكريين والمرشدين، وفرقة المترجمين الموجهين للعمل في الجزائر ابتداء من سنة 1845 واستقر اسمها على فرقة المترجمين العسكريين منذ سنة 1874 وبعد إدماج هذه الفرقة في الجيش تحولت إلى فرقة الضباط المترجمين سنة 1901 (محمد صالح بكوش، :302).

لقد كان الجيش الفرنسي كله سنة 1832 عند وصول الدوق دي ريفيجو إلى الجزائر يضم أربعة مترجمين لا غير جديرين بأداء مهمتهم، ولما استعادت فرنسا قنصلها من طنجة آنذاك ديلايورت ليشغل منصب المترجم الرئيسي الأعلى في جيش إفريقيا بالجزائر ويعطي دروسا للمترجمين ويشرف على تدريبهم، لاحظ هذا الأخير أن أغلبيتهم يجهلون القراءة والكتابة (يوسف مناصرية، 1990:17) ومن هنا برزت شخصية مثقفة جاءت إلى الجزائر وهو ليون روش (يوسف مناصرية، 1990:17) الذي عاش بالجزائر مدة طويلة، وساعدته شخصيته المغامرة ومعرفته لعميقة باللغة العربية على فهم ذهنيات وعادات المسلمين وجعلته احد الرجال اللامعين في هيئة المترجمين العسكريين، حيث شغل منصب مترجم رئيسي محلف في الجيش الإفريقي من طرف المارشال كلوزيل سنة 1835 (يوسف مناصرية، 1990:17).

وظف ليون روش جميع إمكانياته وقدراته في منطقة الغرب الجزائري من أجل الإمام بظروف المقاومة الشعبية بالغرب الجزائري بقيادة الأمير عبد القادر، واستطاع الدخول إلى جيش الأمير وهنا بدأ مهمته كجاسوس للإدارة الفرنسية ورفع الكثير من التقارير العسكرية عن أسرار الأمير العسكرية والإستراتيجية

والسياسية، وكان أول تقرير رفعه من معسكر في وادي نوغة بتاريخ 19 ديسمبر 1837 تضمن معلومات عن شخصية الأمير عبد القادر ووضعه الاقتصادي والعسكري (يوسف مناصرة، 1990: 23-27).

أما عن اللجنة الإفريقية الأولى في الجزائر ظهرت في 02 ديسمبر 1833 (شارل اونديري جوليان، 2008: 199) مدفوعة بجملة من الأسباب هدفها الرئيسي جمع المعلومات التي تنير الحكومة الفرنسية عن حالة الجزائر في الحاضر والمستقبل (أبو القاسم سعد الله، 1982: 97)، وكانت هذه اللجنة تحت رئاسة الجنرال بوني وكان كاتبها هو بيسكاتوري أما السيد لورانس فكان مكلفا بالإدارة والتشريع والقضاء (يوسف مناصرة، 1990: 16)، أما عن التقارير العسكرية فسنذكر على سبيل المثال لا الحصر مجموعة منها:

1 وصف مدينة قسنطينة حسب تقرير للضابط الفرنسي هيوليت في مارس 1830 حيث أودع هذا الوصف مع وثائق هيئة أركان الحرب الفرنسية العاملة بالجزائر في أرشيف وزارة الحرب بفانسان (باريس) (ناصر الدين سعيدوني، 2000: 78-79) كما يقول ناصر الدين سعيدوني، أما عن مضمون هذا الوصف يتلخص في النقاط التالية:

أ)- مدخل يتناول الإمكانات العسكرية والأساليب الحربية لباي قسنطينة الحج أحمد باي.

ب)- الوصف الطبيعي لإقليم قسنطينة

(ج)-ذكر المواصلات والطرق المزمع إنشاؤها بعد إخضاع المدينة .

(د)-تعدد المناطق الإستراتيجية بالإضافة إلى معلومات تمس الجوانب الاقتصادية والثقافية(ناصر الدين سعيدوني،2000: 179)

2 – تقرير آخر من وزارة الحربية رفع من طرف رئيس دائرة قائمة إلى الحاكم العام في 01 ابريل 1906 تضمن ذكرا للوضعية المعنوية لسكان المنطقة بعد الإشاعة التي أذاعها بعض المرابطين والمقدمين والإخوانجية في المغرب والتي تتضمن تأزم العلاقات بين ألمانيا وفرنسا وإمكانية اشتعال الحرب بينهما واستغلوا الوضع من أجل دفع العرب إلى التمرد، ويؤكد صاحب التقرير على ضرورة عدم السكوت على الوضع.

(ANOM ,carton ;9h 16)

3 – ومن أهم التقارير العسكرية بعد ظهور الحركة الوطنية تقرير الجنرال شال حول تطور الوضع العسكري في الجزائر الذي أكد فيه أن المبادرة خلال الفترة الممتدة من 1954 إلى صيف 1958 كانت لجيش وجهة التحرير الوطني على حساب القوات الاستعمارية الذي خدمته الظروف الداخلية والخارجية كما يقول(مسعود مزهودي،2006: 37) ، كما يصف محافظ الشرطة المركزي بمدينة سكيكدة وهو أحد عملاء الجنرال شال، منفذي هجمات الشمال القسنطيني بالخارجين عن القانون les hors de la loi وورد في نص التقرير التأكيد على صورة الجزائري الإرهابي بعد القبض على أحد المشاركين في العمليات(يحي بوعزيز، 1998: 2)

على العموم كانت التقارير العسكرية من أهم المصادر التي اعتمد عليها الفرنسيون في التأريخ للجزائر على طول الفترة الممتدة بين 1830 و1962 باعتبارها شهادات عينية لأشخاص عايشوا الفترة وكانوا أبرز صنّاع الحدث التاريخي المنقول.

أدبيات الرحلة والأسر:

تعتبر الرحلات الاستكشافية من أبرز المصادر التي اعتمد عليها الفرنسيون في كتابة تاريخ الجزائر ولكن الباحث في هذا الموضوع يلاحظ أن غالبية هذه الرحلات كتبت قبل دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر سنة 1830 من قبل مؤرخين من جنسيات مختلفة وليست فرنسية فقط، حيث توفرت العديد من الظروف التي ساعدت هؤلاء الرحالة على الكتابة عن الجزائر، كالظروف التجارية والعلاقات الدبلوماسية والدينية وحتى السياسية الحربية (القرصنة)، وأغلب ما كتبوه عن مدنها وفي الكتابات مقدمتها الجزائر العاصمة ووهران بحكم علاقة هاتين المدينتين بالدول المسيحية، ومع هذه الظروف ترك هؤلاء الرحالة مادة علمية كبيرة عن الجزائر، والملفت في الأمر أن هذه الرحلات لم تقتصر على المسيحيين فقط بل عمد الفرنسيون إلى ترجمة الرحلات الإسلامية التي قدمت مواصفات تختلف عن تلك التي تركها الأوروبيون، أمثال أبو الحسن علي التميمي بن عبد الله محمد الجزولي المغربي وهو من واد درعه 1595. (اعميراي حميدة، 2003:

(4)

لقد ألف عدد كبير من الفرنسيين كتباً حول الرحلة إلى الجزائر إبان العهد العثماني خاصة وتكررت الرحلات إلى الجزائر انطلاقاً من فرنسا في القرن السابع عشر على يد كتاب المدرسة الكلاسيكية الذين ساعدوا على تطويرها لأغراض علمية وحاجات جماعية جسدها على الخصوص {الرحلات التبشيرية، الإرساليات الدينية، كما كانت هناك على المستوى الدولي متطلبات الحياة السياسية والحربية وحتى التجارية} (سميرة أنساعد، 2011: 28) أما في القرن الثامن عشر عرفت الرحلة الفرنسية تحولاً جذرياً مع تنامي التيار الرومانطيسي (أبو القاسم سعد الله، 1985: 88-89) حيث أصبحت تابعة لنوازع ذاتية لدى الكتاب كما أصبحت ضرورة سياسية واجتماعية لدى مثقفي البلاد المختصين في الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا والعلوم الطبيعية وقد تباينت وجهات هذه الرحلات ومواضيعها لتباين كتابها وهواياتهم، فكان منهم الأدباء ورجال الدين الدبلوماسيين والعسكريين والتجار والحكام إضافة إلى هواة المغامرة والصيد والعلماء المستكشفين في مجالات الأنثروبولوجيا والآثار والجغرافيا والطب وعلم البيئة وغيرها من العلوم (سميرة أنساعد، 2011: 29-30)

من بين أوائل الرحالة الاستطلاعيين الذين جاؤوا إلى الجزائر نيكولاي عام 1551، وكان من الجغرافيين ينتهي إلى حاشية الملك هنري الثاني وقدم وصفاً لمدينة الجزائر بجاية وعنابة عندما كان في طريقه إلى اسطنبول (اعميرايو احميدة، 2003: 9) ومن الرحالة أيضاً الدكتور شو الإنجليزي الذي كان كاهناً بالوكالة الإنجليزية في الجزائر عام 1720 إلى 1732 وألف أعمالاً نادرة منها مؤلف بعنوان جولات في ولايات متعددة لبلاد البربر والشرق تضمن أوصافاً دقيقة عن

الجزائر (اعميراوي احميدة، 2003: 9-10) ومن الرحالة الأسبان الذين ترجمة أعمالهم إلى الفرنسية فرانشيسكو خيمينيث وهو من الآباء البيض الأسبان زار مدينة وهران بعدما استرجعتها أسبانيا عام 1732 وقدم ملاحظات هامة عن الجزائر ووهران خلال رحلة دامت من عام 1717 إلى 1720 في سبع مجلدات (اعميراوي احميدة، 2003: 11) ومن الرحالة الفرنسيين الذين سردوا رحلاتهم إلى تونس والجزائر خاصة عالم النبات رينه لويس دي فونتان وركز اهتمامه على المنطقة الشرقية من البلاد ومنطقة القبائل ومتيجة وتلمسان ومعسكر وكان همه جمع أهم أصناف النباتات واكتشافها (سميرة أنساعد، 2011: 33)، ويعد القس برجيس {1810- 1896} من الباحثين الفرنسيين اللامعين في التدريس (سميرة أنساعد، 2011، 35) والتنقيب والبحث في اللاهوت والتاريخ والإثنوغرافيا وعادات الشعوب المشرقية وكان متمكنا من اللغات كاللغة اللاتينية والعربية والبربرية واستطاع الكشف عن مجموعة من المعالم الأثرية بتلمسان، وتمكن من انتقاء مخطوط نادر للحافظ التنسي الخاص بتاريخ ملوك بني زيان أثناء رحلته إليها عام 1846 (اعميراوي احميدة، 2003: 35)، أما فرومنتين وهو رحالة فرنسي ولد بمدينة لاروشيل بفرنسا عام 1820، قام هذا الأخير بثلاث رحلات إلى الجزائر وكانت الأولى سنة 1846 بدعوة من الرسام شارل لابي وأقام بالبلدية 16 يوما قام خلالها بجولات سياحية إلى مضائق الشفة ومليانة والقليلة والمدينة، وكانت الرحلة الثانية في أكتوبر 1847 زار من خلالها كل من الجزائر والبلدية وتيبازة ثم سكيكدة ومنها إلى قسنطينة وعين مليلة وبسكرة التي وصلها في 23 فبراير 1852 ثم اتجه إلى الجنوب الجزائري.

وبعد أربع سنوات يعود إلى الجزائر في رحلة ثالثة رفقة زوجته سنة 1852 زار من خلالها الأغواط والمدينة وقصر البخاري وعين وسارة والجلفة ومناطق أخرى، وقد شهدت فترة إقامته بالجزائر العديد من المقاومات الشعبية أشهرها ثورة الشريف بوبغلة 1858 (عيسى عطاشي، 11: 2005).

إن رغبة الفرنسيين في الحصول على أجود الأراضي للارتفاع بما فوقها وما تحتها دفعهم إلى القيام ببعثات إلى الصحراء (اعميراوي احميدة، دت: 32) وقد بدأت مع مطلع الخمسينيات، ومنها رحلة الدكتور هنري بارت 1849 1857 وإدوارد فوجيل 1853 وبونمان 1857، كما قام كل من كولب ودوفيري برحلتين، الأولى إلى القصور الصحراوية جنوب عمالة وهران 1853 (عبد الله شريط، 262: 1985-263)، والثانية إلى بلاد التوارق ثم بعد ذلك إلى بلاد ميزاب (عبد القادر بوباية، 2003، 173) كما نظم فيل رحلة إلى حوض الحضنة في الجنوب الشرقي أواخر الستينات (اسماعيل العربي، 1986: 20)، وخلال هذه الرحلات عمد الفرنسيون إلى تحميل المقدرات والإمكانات الجغرافية والاقتصادية (يحيى بوعزيز، 2001: 20)، وترجع المحاولات الأولى العلنية لتسرب الاستعمار نحو الجنوب إلى أيام مقاومة الأمير عبد القادر بعد توسعه نحو الجنوب (ادريس فاضلي، 2004: 16)، الأمر الذي دفعهم إلى احتلال الأغواط وبسكرة قبل وصول الأمير إليها الذي شكل إضافة إلى زعماء أولاد سيدي الشيخ سدا ضد هذه السياسة (ابراهيم مياشي، 2000: 105) لتخرج علنا مقاومة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864 (LOUIS BLINI, 1990, 70) ثم تلتها ثورة الشيخ بوعمامة، وأمام هذا الوضع سارعت فرنسا إلى سن قانون يخول

الحاكم العام إدارة أراضي الجنوب(محمد البجاوي، 1960: 350) والسيطرة على المناطق التي شكلت معاقل للمجاهدين.

وبجانب هذه الروايات التي دونها للرحالة يمكن الحديث عن نوع آخر من الروايات تركها الأسرى المسيحيون، ومنها رواية بل في مغامرة أسير نشرت سنة 1785 بطلها شخص اسمه سالي الذي رافق سيده إلى تونس وأسر فيها، وكذلك رواية دومان الذي عاش مدة ثلاثون سنة كعبد في الجزائر(اعميراوي حميدة، دت: 26) وحرر بعد حملة إكسمانث على الجزائر عام 1816(عبد الجليل التميمي، 1985، 59)، وهناك رواية أخرى حررها الأسير الإيطالي بانينتي (أبو العيد دودو، 1975: 98) الذي دعا إلى حملة ضد الجزائر وإقامة مستعمرة أوروبية على الساحل الإفريقي، ولعل أشهر روايات الأسر خلال العهد العثماني مذكرات تيدنا الذي قبض عليه في مركب إسباني معادي للجزائر وأشتري من طرف باي معسكر الذي أعجب بثقافته وبقي هناك ثلاثة أعوام ترقى خلالها إلى أن صار وزيرا للمالية وكان يرافق سيده في جميع تنقلاته، وعرف من خلال المدة التي أقامها بالمنطقة الكثير من المعلومات عن سكان المنطقة وطبيعتها وكل مظاهرها الجغرافية. (اعميراوي حميدة، دت: 32-33).

مما سبق يتبين أن أدبيات الرحلة والأسر شكلت مادة مصدريّة دسمة ساعدت الفرنسيين على بناء صورة مسبقة عن الجزائر شعبا وأرضا.

مذكرات الحكام والقادة العسكريين:

إن أهم ما يجب البحث فيه هو الفترة التي كتبت فيها هذه المذكرات، حيث يمكن تقسيمها على أقل تقدير إلى فترتين، فكتبت الأولى منذ دخول الاستعمار سنة 1830 إلى غاية انتهاء المقاومة الشعبية، أما الثانية فيمكن تصنيفها مع الحركة الوطنية والثورة التحريرية، خاصة وأن الاختلاف الجوهرى بين هذه المذكرات هو أنها كتبت في أوضاع مختلفة، فالمذكرات التي ظهرت مع بدايات الاحتلال ضمت في مجملها حقائق عن الاكتشافات الاستعمارية في الأراضي الجزائرية، أما فيما يخص الفترة الثانية من الاحتلال الفرنسي للجزائر فقد حملت في طياتها مجموعة من التقارير العسكرية، وأهم العمليات التي قام بها كتاب هذه المذكرات أو اعترافات لقادة وجنرالات سابقين، وشكلت هي الأخرى مصدرا من مصادر كتابة التاريخ، وكانت قد نشرت أغلبها في النشريات الرسمية التي كانت تصدرها الإدارة الاستعمارية وطبع بعضها على شكل كتب. (ناصر الدين سعيدوني، 2000: 10)

إن من أبرز المذكرات التي اعتمد عليها المؤرخون الفرنسيون في كتابة تاريخ الجزائر، مذكرات المارشال سانت أرنو 1832_ 1841، وهي مطبوعة في جزأين وشكلت شهادة حية على عصر دخول الاستعمار إلى أرض الجزائر واحتوت على تفاصيل يومية على حياة السكان ووضعهم الاجتماعي والاقتصادي، حيث جاب هذا المارشال مختلف بقاع شمال الجزائر وتوغل أحيانا إلى جنوب الصحراء غازيا وكان يدون ملاحظاته باستمرار وعلى أرض الميدان، ولكن مع الأسف لم تخلص هذه المذكرات من النزعة الذاتية العنصرية الاستعمارية، لكنها تطلع القارئ على حيثيات معارك قام خاضها المقاومون بكل بسالة، كما تظهر مدى البشاعة

والهمجية التي واجهت المقاومين من طرف هذا المارشال نفسه فهو يعترف بكل أريحية بقيامه بعملية حرق القرى والقتل الجماعي، لكنه لم يهمل ذكر بعض البطولات التي سطرها المجاهدون، كما تأتي المذكرات على ذكر مجموعة من الأحداث والعبر التي تدل على مواطن الضعف التي جعلت المستعمر يدخل الجزائر ويعمر مدة طويلة (سانت ارنو، 2013: 5-6).

وعلى غرار سانت ارنو ظهر العديد من مؤرخي المدرسة الجزائرية القديمة كما يسميها ستيفان غزال، ومثلها كل من فيروورين واوربان وكلوذيل إضافة إلى دي بري، فيالا، دي جويبر، روبان، دوني، دوما، روب كاريت، جانيتي، ديوس وغيرهم (ناصر الدين سعيدوني، 2000: 10)، وكان العقيد كافينياك من أبرز الذين اهتموا بأسطورة الجزائر الرومانية التي أصبحت تشكل إحدى مبررات الاستعمار في احتلال الأرض وأهم الركائز التي تبنى عليها إيديولوجياتهم (عبد الجاسم سعدي، 2004: 69-70) وقد قام كافينياك بحملة في الصحراء الجزائرية خلال شهري أبريل وماي 1847، سجل يومياته في مجلة السفر {ذكريات وانطباعات} ونقلها الدكتور فيليكس جاكو إلى القراء وشهدت إقبالا كبيرا رغم عدم اكتمالها، وتصف المذكرات صعوبة المناطق التي وصلها هذا العقيد، وتنقل أقواله واعتراقاته بموجة الكراهية وانعدام الثقة من طرف القبائل الصحراوية التي وجهها، وإن هذا الشعب لا يمكن إرضاخه بقوة السلاح. (فيليكس جاكو، 2013: 7-9).

لم تكن حملة الجنرال كافينياك مغامرة ترمي إلى الوصول أبعد من سابقه، بل كان هدفها التعرف على جميع الأشياء ذات الأهمية (فيليكس جاكو، 2013: 15)،

دفعته إلى ذلك المتطلبات التجارية ومستقبل المستعمرة ومقتضيات الحرب (فيليكس جاكو، 2013: 15).

كما ألف الجنرال ميشال فورجي كتابا أسماه الحرب الباردة وحرب الجزائر 1954-1962، تميز بأسلوب واضح وثري يغطي فيه عشية 1954-1964، ويعالج أساسا حرب الجزائر، هذه الحرب التي شهدها هذا الضابط بالقوات الجوية ويعرض من خلاله تقنيات وممارسة التعرف بالمشاهدة بمساعدة أو بدون مساعدة برج المراقبة، إضافة إلى أهم التغيرات والتطورات التي شهدتها القوات الجوية الفرنسية بالجزائر (ميشال فورجي، 1964: 5-6)، وقام مجموعة من الكتاب بجمع جملة من الشهادات، من بينهم باتريك ايفينو وجون بلانشايس، اللذان ألفا كتابا بعنوان حرب الجزائر ومن بين هذه الشهادات شهادة بيان ميزوناف وهو ضابط بالشرطة أيام الحاكم العام روبير لاكوست الذي شارك في أحداث الشمال القسنطيني، حيث قال أنه عل الصعيد الداخلي كان لابد من التضيق على التمرد العسكري المسلح، وذلك بتكثيف عمليات التمشيط والحصار، إضافة إلى التطهير السياسي ومحاولة التقرب من المواطنين لأنه على حد قوله يمكن من خلال هذه الإجراءات إنجاح عملية الاحتلال غير أنه يعترف بأن جبهة التحرير كانت لهم بالمرصاد (باتريك ايفينو وجون بلانشايس، 2013: 36-37)، وسجل صاحب المناورات السياسية الخطيرة الجنرال ديغول ومشكل الجمهورية الفرنسية الخامسة مذكرات تعرف بمذكرات الأمل ما بين 1940 – 1942، ذكر فيها العلاقات الفرنسية العربية في المغرب والشرق الأوسط وأفريقيا إضافة إلى تداعيات الحرب العالمية الثانية وهي مترجمة إلى العربية .

ولعل أبرز المذكرات التي أثارت جدلا واسعا في صفوف الطبقة الفرنسية المثقفة شهادة الجنرال أوزاريس الموسومة ب: شهادتي حول التعذيب، مصالحي خاصة بالجزائر 1957 – 1959، وقد طرح المؤلف في كتابه هذا قضية تعد النقطة الأساسية التي احتدم حولها النقاش في الماضي والحاضر وهي اللجوء إلى التعذيب لقمع العدو وهزيمته، ولكنه كغيره من القادة العنصريين يحاول إبعاد التهمة عن نفسه حيث يصرح قائلا: {العمل الذي قممت به في الجزائر كان من أجل بلادي، معتقدا في ذلك أنني أحسن صنعا، وإن كنت لم أرد أن أقوم به وذلك أن ما نقوم به ونحن نعتقد أننا نؤدي واجبنا من خلاله ولا يمكن لنا أن نندم عليه}. (أوزاريس، 2004: 6)، وإن المتصفح لهذه الشهادات يرى أن معظم الكتاب العسكريين المعاصرين والمحدثين قد حرصوا على إبعاد العنصر الوطني من هذه المقاومة وربطها بالأسباب الاقتصادية والاجتماعية حتى لا ينتزعها من محتواها، وحاولوا أن يروجوا لصورة الجزائري المتعصب الذي لا يستطيع التعايش مع الأوروبيين ما يفسر ثورته ضده، وفي الحقيقة هذه إدعاءات باطلة بالأدلة التاريخية القاطعة، لأن الجاليات الأوروبية والمسيحية كانت تعيش بالجزائر قبل 1830 بقرون في أمن وسلام ومنها الجالية الفرنسية التي تركزت بالقالة وعناية في منتصف القرن السادس عشر، وكانت تمارس نشاطها الديني والاقتصادي بكل حرية، (جمال قنان، 2005، 347-350) كما وجه القادة الفرنسيون أصابع الاتهام إلى أطراف خارجية فاتهموا كل من المقراني والحداد ومحي الدين بن الأمير وحفيده الأمير عبد القادر بتأجيج التمرد، وقد تبنى هذا الادعاء معظم من كتب عن ثورات الجزائر في القرن الماضي وحتى الحالي أمثال لويس دين، شاتولي، لوسيان، هيريون، بول أزان، وآخرون، ولكن في الحقيقة أن الطرف الخارجي في هذه

القضية هي فرنسا نفسها لأن الأشخاص الذين اهتموا بإثارة الفتنة هم أبناء هذا الوطن ويحق لهم الدفاع عنه. (يحي بوعزيز، 1998: 28).

تقييم المساهمة الفرنسية في كتابة تاريخ الجزائر:

بلغت الكتابات الفرنسية مرحلة كبيرة ومتطورة، سواء من ناحية الكم أو المنهج، حيث عملت على جمع الآثار وحفظها في المكاتب والمتاحف والسهر على الاستفادة منها، وإن كان أغلبها من مصادر غربية وأرشفات أوروبية، ومنها المصادر المحلية التي تم الاستحواذ عليها بطرق غير شرعية في مقدمتها الغزو والحملات، ونشر الكثير من هذه الآثار العربية في لغتهم وأحياناً بنصها الأصلي، فضلاً عن استخدام تقنيات البحث الحديث، من حيث تصنيف المادة حسب الاختصاصات وتنظيم الفهارس، كما ساهمت في تنشيط الدراسات التاريخية وتشجيع البحث التاريخي، وتبادل الخبرات عن طريق نشر الدوريات والندوات العلمية وإنشاء الصحف النشريات ك: المرشد الجزائري، الأخبار سنة 1839، المبعثر سنة 1847، وتكوين جمعيات ثقافية قصد العمل على نشر الإنتاج التاريخي مثل: الجمعية التاريخية الجزائرية التي كانت أهم إنجازاتها (ناصر الدين سعيدوني، 2000: 30-31) المجلة الإفريقية Revue Africaine، غير أنها أهملت الجانب الجزائري في تناولها لتاريخ الجزائر فقد كتبوا عنها كم منطقة جغرافية تداولت عليها الشعوب من الفينيقيين حتى وصول الفرنسيين، وليس هناك نظرة شعب أو أمة أو كيان متماسك، إنما هناك قبائل متفرقة متناثرة تخوض حروباً مستمرة. (ابو القاسم سعد الله، 1985: 35-36) وتبقى الدراسات التاريخية حول الفترة العثمانية في أغلبها

عملا يتصف بقلة العمق وسرعة الأحكام وسطحية التفسير (Pultrations de documents Algerian, 1985,430).

خاتمة:

لقد شكلت كتابات المؤرخين الأكاديميين والمختصين حجر الزاوية بالنسبة للمثقفين الفرنسيين في التأريخ للجزائر من حيث المواضيع المطروحة أو المسائل المعالجة وحتى طريقة المنهجية المتبعة، وإن المتصفح لهذه الكتابات يلاحظ تأثرها بالزعة الاستعمارية العنصرية، بيد أنه وعلى الرغم من هذه النزعة الذاتية إلا أنه لا يمكن للمدرسة التاريخية الجزائرية التخلي عن هذه المكتسبات التي خلفتها المدرسة الاستعمارية في بناء قواعد بحث حقيقية دعما للمدرسة الجزائرية المعاصرة، حيث أن هذه الكتابات مست مختلف المواضيع الاقتصادية الاجتماعية الثقافية وحتى الدينية، ويتيح التنوع والاختلاف في الأشكال والمضامين، سواء كانت كتباً أو تقارير أو مقالات صحفية، للباحث عملية المقارنة والفرز لتتبع الحقائق، وتصفية التاريخ المحلي من الشوائب التي طالته، وكذا التفريق بين العناصر الداعمة للثورة التحريرية والمناهضة لها، وتكوين نظرة استشرافية لما يجب أن تكون عليه المدرسة التاريخية الجزائرية.

البibliوغرافية:

-أبو القاسم سعد الله، 1982، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر (بداية الاحتلال)، الطبعة الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

-أحمد شرف الدين رضوان، 2007، نظرة الفرنسيين لتاريخ الجزائر (جيلبير ميني أنموذجا)، ملتقى وطني حول الدراسات التاريخية بالجزائر،

(الثورة والمقاومة أنموذجا)، منشورات وزارة المجاهدين، غرداية، 16-17
ديسمبر 2006، الجزائر. □

-إدريس فاضلي، 2004، حرب جبهة التحرير الوطني عنوان ثورة ودليل
دولة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

-إسماعيل العربي، 1986، تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر،
المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

-أعمراوي أمحيدة، 2003، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد
العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا)، دار الهدى، الجزائر.

-أعمراوي أمحيدة، دت ، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844
1916، دار الهدى.

- إبراهيم مياسي، 2009، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، 1837-
1937، دار هوم، الجزائر.

- باتريك ايفونو، 2013، جون بلانشايس، حرب الجزائر ملف وشهادات،
ج 1، ترجمة بن داود سلا منية، دار الوعي، الجزائر.

-الجنرال أوزاريس، 2004، شهادتي حول التعذيب مصالح خاصة
الجزائر، 1957-1959، ترجمة مصطفى فرحات، دار المعرفة، الجزائر.

- سانت أرنو، 2013، مذكرات المارشال سانت أرنو 1832-1841، ج 1،
ترجمة عبد القادر ليفا وبداه المهدي، دار المعرفة، الجزائر.

- سميرة أنساعد، 2011، أزهار نيسان في ذكر محاسن تلمسان : كتب الرحالة العرب والأوروبيين، ج1، دار التراث الغير مادي والكورغرافيا، الجزائر.
- شارل أندري جوليان، 2008، تاريخ الجزائر المعاصرة، الغزو وبداية الاستعمار 1827- 1871، ترجمة جمال فاطمي وفتحي سعدي وآخرون، مج1، دار الأمة، الجزائر.
- صالح بن قربة وآخرون، 2007، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر.
- عبد الجليل التميمي، 1985، بحوث ووثائق في التاريخ المغاربي (الجزائر، تونس، ليبيا) ، 1816 1871، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس.
- عبد الحميد زوزو، 1984، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- عبد الله شريط، 1985، محمد مبارك الميلي، مختصر تاريخ الجزائر السياسي الثقافي الاجتماعي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- عبد المجيد عمراني : المثقفون الفرنسيون والثورة الجزائرية (جانسون أنموذجا)، المصادر، العدد 21، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.
- . - عبد المجيد عمراني، دت ، جون بول سارتر والثورة الجزائرية 1948□1962، مكتبة مدبولي، القاهرة.

- عيسى عطاشي، 2005، صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي صيف في الصحراء، فروميتين أنموذجا، رسالة لنيل شهادة الماجستير، تخصص دراسات نقدية ومقارنة، جامعة الجزائر.
- فيليكس جاكو، 2013، حملة الجنرال كافينياك في الصحراء الجزائرية خلال شهري ابريل وماي 1847، ترجمة حليلة بابوش، دار المعرفة، الجزائر.
- محمد البجاوي، دت، الثورة الجزائرية والقانون 1960 1961، ترجمة علي الحش، دار الرائد، الجزائر.
- محمد الصالح بكوش، 2013، الترجمة في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي 1830 - 1930، دار التنوير، الجزائر.
- مسعود مزهودي، 2006، وآخرون، ثورة التحرير الوطني مبادئ وأخلاق، دار الهدى، الجزائر.
- ناصر الدين سعيدوني، 2000، ورقات جزائرية: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- يحيى بوعزيز، 2001، تاريخ افريقية الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس إلى مطلع القرن العشرين، دار هومه، الجزائر.
- يحيى بوعزيز، 1998، ثورات الجزائر في القرنين 19 و20، الطبعة الثانية، الجزء الأول، المنظمة الوطنية للمجاهدين، الجزائر.
- يوسف مناصريه، 1990، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب، 1832-1847، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

- جمال قنان، 2005، العلاقات الفرنسية الجزائرية، 1790 □ 1830،
المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر.
- عبد القادر بوباية: 2003، دور الرحالة والمستكشفين في حركة التوسع
الفرنسي في الجزائر، عصور الجديدة، العدد 4 - 5، الجزائر.
- ANOM, carton, 9h 16.
- Louis blini, l'Algérie du Sahara ou sahil, paris, Edition
lharamattans, 1990.
- Lucien, Febvre, la pensée, vivante, d'un historien, Paris,
1971.
- Publications de documents, Algerian in Revue Africaine, t 29,
1885.